

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٤) [الأنعام: 42]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الكافرون
يَمْتَنِعُونَ عَنْ
قَبُولِ الْحَقِّ فِي
السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْكَفَّارَ عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ كُلِّ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الشَّدَائِدِ، بَلْ قَدْ يَبْقَوْنَ مُصِرِّينَ عَلَى الْكُفْرِ مُنْجَمِدِينَ عَلَيْهِ غَيْرَ رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى (1).

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾: الْأَخْذُ هُنَا يَدُلُّ عَلَى الْإِنْتِقَامِ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، وَهُوَ أَيْضًا تَنَاوُلُ الشَّيْءِ وَالْحُصُولُ عَلَيْهِ، وَضِدُّهُ: الْعَطَاءُ وَالتَّسْلِيمُ، وَأَصْلُهُ: حِيَازَةُ الشَّيْءِ وَجَمْعُهُ، وَمِنْ مَعَانِيهِ أَيْضًا: الشُّرُوعُ وَالْبَدْءُ وَالْقَبْضُ وَالِاتِّزَامُ وَالْإِمْسَاكُ وَالتَّلَقِّيُّ وَالْمُجَازَاةُ (2).

(2) ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: الْبَأْسَاءُ: اسْمٌ لِلْبُؤْسِ، وَهُوَ الْمَكْرُوهُ وَالضَّرَرُ وَالشَّدَّةُ وَسُوءُ الْحَالِ، وَقِيلَ: الْبَأْسَاءُ الْفَقْرُ وَالْفَاقَةُ، وَهُوَ مِنَ الْبُؤْسِ، وَأَصْلُ (بَأْسٍ): الشَّدَّةُ وَمَا ضَاهَاها، وَقِيلَ: الْبَأْسَاءُ ضَرَاءٌ مَعَهَا خَوْفٌ، وَأَصْلُهَا مِنَ الْبَأْسِ، وَهُوَ الْخَوْفُ؛ يُقَالُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، أَي: لَا خَوْفَ عَلَيْكَ (3).

(3) ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أَي: الْمَرَضُ وَالزَّمَانَةُ، وَسُوءُ الْحَالِ، وَالْفَقْرُ وَالْقَحْطُ، وَهِيَ مُقَابِلُ السَّرَّاءِ، وَالضَّرُّ: خِلَافُ النَّفْعِ (4).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).

(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 70، 81، وابن جرير، جامع البيان: 3/89، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 89، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بأس، بؤس).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ضر)، وابن الهائم، التبيان، ص: 156.

(4) ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: التَّضَرُّعُ: إظهارُ التَّذَلُّلِ، والخُضُوعِ لِلَّهِ تعالى، والمبالغةُ في السُّؤالِ، والرَّغبةُ مع الإخلاصِ، وأَصْلُ التَّضَرُّعِ: مِنَ الضَّرَعِ، وهو: اللَّيْنُ وَالضَّعْفُ، وَرَجُلٌ ضَرَعٌ، أَي: ضَعِيفٌ، وَمِنْهُ ضَرَعٌ الشَّاةُ، سُمِّيَ بذلك؛ لِما فِيهِ مِنْ لِينٍ، وَمِنْ مَعَانِي التَّضَرُّعِ أَيْضًا: التَّخَشُّعُ وَالسُّكُونُ وَالاسْتِغَاثَةُ⁽¹⁾.

✽ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

البأساء والضراء علاجٌ لأدواءِ الكفرِ والشركِ، يُنعمُ اللهُ به على عباده ليرجعوا عمَّا هم فيه، ويعودوا إلى رُشدِهِم، وقد أُخبرتِ الآيةُ أَنَّ اللهَ ﷻ قد أرسلَ رُسُلَه - ﷺ - إلى الأممِ السَّابِقَةِ، لكنَّهُم كَفَرُوا وعاندوا فعاقَبَهُمُ اللهُ بألوانٍ مِنَ العذابِ الشَّدِيدِ والبلاءِ المؤلِمِ؛ لعلَّهُم يَخْضَعُونَ وَيَرْجِعُونَ عن كُفْرِهِم وشِرْكِهِم.

تقليبُ العبادِ
بين البأساء
والضراء،
لعلَّهُم
يتضرَّعون

✽ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبلاغِيّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

جُمْلَةٌ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ معطوفةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾، فالواوُ لِعَطْفِ الجُمْلِ، وقد تَكُونُ اسْتِثْنائِيَّةً إِذْ كَانَتِ المَعْطُوفُ عَلَيْهَا اسْتِثْنَاءًا⁽²⁾.

غرضُ الابتداءِ بلامِ القسمِ و(قد) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

الجملةُ خبرِيَّةٌ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ صُدِّرتْ بِاللَّامِ الموطَّئَةِ للقَسَمِ، و(قد)⁽³⁾؛ لتوكيدِ مضمونِ الجملةِ؛ وهو المَفْرَعُ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ بِالْبَاسِ وَأَلْضَرَّاءَ﴾⁽⁴⁾، فهو من بابِ تنزيلِ المخاطَبينَ منزلةً من يُنكرُ أَنَّ تكونَ الأممُ السَّابِقَةُ عوقِبَتْ عَلَى

تنزيلُ المخاطَبِ
منزلةَ المُنكرِ،
من فصيحِ
البيانِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (ضرع).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/226.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

الكفر والتكذيب، وذلك بسبب موقف المشركين من الإيمان، وعدم تصديقهم بما جاء فيه.

دلالة إسناد فعل الإرسال إلى ضمير العظمة في ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

الكفر بالأنبياء
يعاقب الله
عليه، بأشدّ
العقوبة

إذا كان الأخذ الإمساك بقوة، فإنّ قوّة هذا الأخذ ستكون أكثر تمكُّناً؛ لأنّه أخذ من قوي عزيز، وهذا ممّا دلّ عليه اتّصال الفعل بـ (نا) الدالّة على العظمة، فإنّ من شأن العظيم أن يُستجاب له، ويُطاع فيما يأمر به، وينهى عنه، فإذا خالف المرسل إليه أمر المرسل؛ فقد تعرّض للعقوبة.

نكتة حذف مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

البلاغة تكمن
في الإفصاح عن
المقصود، وطى
ما يسواه

من البلاغة في الآية الكريمة حذف مفعول: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ والتقدير: رُسُلًا، وحسن ذلك؛ لدلالة الكلام عليه⁽¹⁾، وفي الآية حذف آخر، دلّ عليه الكلام أيضاً؛ تقديره: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رُسُلًا، فكذبوهم فأخذناهم؛ وقدر المحذوف على نحو ما ذكر؛ لأنّ سبب أخذه ﷻ إيّاهم تكذيبهم الرُّسل، ومخالفة أمره، وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف، والذي سوّغه علّم السامع به، ودلالة الكلام عليه⁽²⁾، ونكتته العناية بالإرسال والأخذ الصّادرين عن الله تعالى، بقطع النّظر عن ذكر المرسل، وبيان موقف المكذّبين، فإنّ السّياق هو سياق تهديد ووعيد، فالأنسب طيُّ الكلام بما يناسب المطلوب.

وجه تعدية فعل الإرسال، بحرف انتهاء الغاية:

تعدية الإرسال
بـ (إلى) للتبليغ،
وبـ (في) للمكث

تعدّى فعل الإرسال بحرف انتهاء الغاية (إلى) دون حرف الظرفيّة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنكُمْ﴾؛ ذلك أنّ الإرسال في هذه الآية يقتضي التبليغ، ولا يقتضي المكث، نقول: أرسلته إليه إرسالاً، أمّا تعدية الفعل بحرف الظرفيّة، كقوله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والبقاعي، نظم الدرر: 7/113.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/533.

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]؛ فيقتضي التبليغ والمكث.

دلالة الجمع والتَّنْكِير في لفظ: ﴿أُمَمٍ﴾:

دلَّ الجمع والتَّنْكِير في قوله تعالى: ﴿أُمَمٍ﴾ على أمرين: التَّنْكِير والتَّكْثِير، أي: أُمَمٌ كثيرون من قَبْل، وهذه الدَّلالة مُسْتَفَادَةٌ بمَعُونَةِ السِّيَاق، فالمَقَامُ مقامُ تَسْلِيَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وتَكْرِمَةٍ لَهُ بِإِيْذَانِهِ بِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ عَلَى مُكْذِبِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَخْذِهِمْ بِاِقْتِدَارٍ، فَذَكَرُ الْأُمَمِ دُونَ وَصْفٍ أَوْ تَعْرِيفٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَالِ الْمَكْذِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَيَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ مِنَ النُّكَارَةِ.

المكذَّبون ينتهي
بهم الحال، إلى
النُّكَارَةِ النَّكَارَةِ

سُرُّ استعمال لفظ ﴿أُمَمٍ﴾ دون أقوام:

مِنْ دِقَّةِ التَّعْبِيرِ فِي النِّظْمِ الْقِرْآنِيِّ: التَّعْبِيرُ عَمَّنْ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَخْذِهِمْ بِالْعَذَابِ بِكَلِمَةِ ﴿أُمَمٍ﴾ دُونَ غَيْرِهَا مِمَّا يَحْمِلُ مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِمَا تَوَدِّيهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ مَعْنَى، فِ (أُمَم) جَمْعُ أُمَّةٍ، أَي: أَنَاسٍ يُؤْمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَمَّ أَهْلٌ لَّأَن يَقْصِدَهُمُ الْقَاصِدُونَ؛ لكَثْرَتِهِمْ وَعَظَمَتِهِمْ⁽¹⁾.

الأقوام أدعى
لأن يُؤْخَذُوا،
ما دامت الأمم
الكبرى قد
أُخِذَتْ

ولعلَّ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عَظَمَتَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ مَا كَانَتْ لَتَغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا حِينَ اسْتَكْبَرُوا وَعَصَوْا اللَّهَ تَعَالَى وَرُسُلَهُ ﷺ، فَكَأَنَّ فِيهِ تَحْذِيرًا لِلسَّامِعِينَ مِنْ مَغْيَةِ إِعْرَاضِهِمْ، وَتَمَادِيهِمْ فِي غِيَّهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْأُمَمُ الْكَبِيرَةُ قَدْ أَخِذَتْ؛ فَكَيْفَ بِالْأَقْوَامِ؟ فَهُوَ تَنْبِيهٌُ لِلأَدْنَى بِالْأَعْلَى.

وجه تقديم ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾، على ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ رُسُلًا كَثِيرِينَ إِلَى أُمَمٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ قَبْلَ زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيدُ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ صِفَةٌ سَاغَتْ تَأْخِيرَهَا عَنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

ساغ تقديم
الموصوف على
الصفة لأهميته
في ترسيّة المعنى

موصوفها الذي هو ﴿أُمِّ﴾ بحسب الرتبة النحوية، وقد جاءت على مقتضى الظاهر، إشارة إلى أن ما يقتضيه الإرسال إلى الأمم انتهت، وأنّ النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، وفيها إشعار بأنّ أمته هي الأمة الخاتمة، والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم ماضية أو سابقة لعصرك، وعليه فإنّ تقديم ﴿إِلَى أُمِّ﴾ يفيد مزيد الاهتمام، والتقديم في الكلام لما بيّنه أعنى ووجهه أنسب للسياق الذي جاءت به سورة الأنعام.

دلالة حرف ﴿مِنْ﴾، في قوله: ﴿قَبْلِكَ﴾:

الإشارة إلى
أنّ ما حصل
للسابقين،
سوف يحصل
للمعاصرين

من جمال التعبير القرآني الإتيان بحرف الجرّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾، فيقال - في غير القرآن - : (ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك)، لكنّ هذا - وإن استقام بناءً - فلن يستقيم معنى؛ لأنّ في ذكر حرف الجرّ هنا لطيفة تفيد الإشارة إلى بعض الأمم المرسل إليها، لا كلّها، وهي التي أراد الله تعالى قصّ أخبارها، وهي التي عاقبها - ﷺ - على تكذيبها⁽¹⁾، ويظهر كذلك أنّ النصّ على القبليّة لبيان قرب عهدهم، فهم ليسوا بعيدين في الزمان، فما حصل لهم يحصل لمن جاء بعدهم.

بلاغة الإشارة إلى المرسلين في قوله: ﴿قَبْلِكَ﴾:

رسالة النبي
ﷺ، استمرار
لرسالات
السابقين

لما حذف ذكر مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وهم المرسلون؛ كان من اللطيف أن تكون الإشارة إليهم - ضمناً - من خلال إضافة الظرف إلى الضمير المقصود به النبي ﷺ، الذي هو خاتم النبيين.

نوع الغاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ باعتبار ما يؤذن به وصف ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من معاملة أممهم إيّاهم بمثل ما عاملك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

معرفة حكمة
الله تعالى،
تعيين على تقدير
المحذوفات في
نظم القرآن

به قومك، فیدل العطف على محذوفٍ تقديره: (فكذبوهم)، وهذه الفاء هي الفصيحة التي تُنبئ عن كلام محذوف، وهذا التقدير مبني على معرفة حكمة الله تعالى المتمثلة بزجر الأمم عن التكذيب، وإكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذبين، وفيه تكرمة للنبي ﷺ بإيدانه بأن الله ناصرُه على مُكذِّبيه⁽¹⁾.

دلالة (الفاء) على سرعة الأخذ في زمان الرسل:

عُطِفَتْ جملة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالفاء دون (ثم)، ولعل ذلك للإشارة إلى أن أخذهم بالبأساء والضراء كان مقارناً لزمان وجود رسلهم بين ظهرائهم، وفي هذا تنبيه إلى أن ذلك الأخذ كان بمرأى من رسلهم، وقبل رحيلهم عن الدنيا؛ ليكون إشارة إلى أن الله تعالى أيد رسله ونصرهم في حياتهم، وهذا إيدان بأن الله تعالى ناصر نبيه محمداً ﷺ على مُكذِّبيه، ففيه تكريم له ﷺ ووعيد لمن كذب به⁽²⁾، وهذا ما يشهد له عموم الآيات القرآنية.

سر استعمال لفظ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾، دون (فعاقبناهم):

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ مجاز؛ فالأخذ هو الإمساك بقوة، وبطش وقهر، فهو مجاز عن متابعة العقوبة والملازمة⁽³⁾، أما العقوبة فهي مجازاة بالذنب، ولا يشترط أن تكون شديدة أو أليمة أو مُهينة، فقد تكون يسيرة؛ لارتباطها بالذنب. ويوضح ذلك بجلاء قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126]⁽⁴⁾؛ لذلك جاء التعبير القرآني بـ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ مناسباً لسياق التهديد والترهيب، وما يوحي به من الشدة والقهر.

أخذ المكذبين،
دليل نصر
الرسل المكرمين

عقاب الله
المشركين شديداً،
وعذابه دائم
وأليم

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/514.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزغب، للفردات، وجبل، للعجم الاشتقاقي: (عقب).

دلالة إسناد فعل ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ إلى ضمير الجلالة:

من عادة الأمم مع رُسُلهم التَّكْذِيبُ والمبالغة في قسوة القلوب حتَّى هم إذا أُخِذُوا بالبلايا، لا يتذَلَّلون لله، ولا يسألونه كشفَها، وهؤلاء الأمم الَّذِينَ بعث الله تعالى إليهم الرُّسُلَ أبلغُ انحرافًا، وأشدُّ شَكِيمَةً، وأجلدُ مَنْ الَّذِينَ بُعِثَ إليهم رسولُ الله (1)؛ لذلك جاء التَّعبيرُ مناسبًا لحالهم: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾، دون أن يقول: (فأخذوا)، أي: إِنَّ الأخذَ كان شديدًا مِنَ الله تعالى، ويعزِّزُ هذا المعنى، ويُقوِّيه إسنادُ الفعلِ إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظ الجلالة.

نكتة التعبير بضمير العقلاء على الأمم:

عبر بضمير العقلاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾، ولم يقل: (فأخذناها) لصحة ذلك الضمير لهم، باعتبار أن لهم عقلاً مكلفون به، ولأنَّ إرسالَ الرُّسُلِ لا يكونُ إلَّا للعقلاء، فالآية توجَّه النَّظَرُ إلى موضع التَّكليفِ، وهو عقلُ تلك الأمم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الأممَ مكلفَةٌ بمجموعها بالإيمان والامتثال، فإنَّ الأخذَ وقع عليها باعتبارها التَّكليفِيَّ لا باعتبارها الاجتماعيَّ.

نكتة ذكر متعلِّق الأخذ، وهو البأساء والضَّراء:

ذكرت الآية متعلِّق الأخذ؛ وهو قوله تعالى: ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ وذلك لأنَّه أخذٌ خاصٌّ، بخلاف الآتي بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44] (2)، فهو أخذٌ عقابٍ، فكان الأخذُ الخاصُّ مقدِّمةً للأخذِ العامِّ، وهذا من تمام نعمة الله على عباده، أن يأخذهم أخذَ تنبيهٍ قبل أخذِ العقابِ الماحقِ.

أخذ الله عظيم
شديد، إن وقع
فلا منجى منه

الأخذ وَقَعَ على
الأمم باعتبارها
مكفَّة، لا
باعتبارها
الاجتماعي

الأخذ الخاص
تنبيه على الأخذ
العام

(1) أبو حيان، البحر المحیط: 4/513.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

معنى حرف (الباء) الدّاخل على (البأساء) و(الضرّاء):

الباءُ الدّاخلَةُ على (البأساء) و(الضرّاء) في قوله تعالى: ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أفادتِ الاستعانة، وقد أدّت إلى إظهار شدّة العذاب بهما، وإن كان بعضُ العلماء لا يُجيزُ إطلاقَ لفظِ الاستعانة على الباءِ الواقعة في القرآن، فلا يجوزُ التّعبيرُ بالاستعانة في الأفعالِ المُسنّدةِ إلى الله تعالى، فسمّوها: سببيّة.

توجيهُ الخصوصِ بالذّكر في ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾:

فُسِّرَتِ البأساءُ بالجوع، والضرّاءُ بالمرض⁽¹⁾، وهو تخصيصٌ لا وجه له؛ لأنّ ما أصاب الأممِ مِنَ العذابِ كان أصنافاً كثيرةً، ولعلّ من فسّره بذلك اعتبرَ ما أصاب قريشاً بدعوة النّبي ﷺ، فالبأساء والضرّاء اسمان على وزن فعلاء، وليسا وصفين؛ إذ لم يُسمع لهما أفعُلٌ مذكّراً، والبأساء مُشتقة من البؤس، وهو سوءُ الحالة من فقرٍ ونحوه من المكروه، قال الرّاعب: وقد غلب في الفقر، ومنه البئس: الفقير، فالبأساء: الشّدّة في المال، والضرّاءُ شِدّةُ الحال على الإنسان مُشتقة من الضّرّ، ويقابلُها السّراءُ؛ وهي ما يسرُّ الإنسان من أحواله، والبأسُ: النّكايةُ والشّدّةُ في الحرب ونحوها⁽²⁾، فذكرُ البأساء والضرّاء من بابِ استيعابِ كلّ معاني الشّدّة التي تُصيبُ الأمم، التي من شأنها أن تدفعها إلى الالتجاءِ إلى الله تعالى؛ للتّضرّعِ والإنابة.

دلالةُ حرفِ التّرجي (لعلّ) في سياق الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قَيَّدَتِ الجملةُ بـ (لعلّ) التي تفيدُ التّرجي، وهي تحملُ معنى الرّجاء والشك؛ لأنّ معنى التّرجي يقتضي عدمَ الجزم بوقوع المرجو عند المتكلّم، فللشكِّ جانبٌ في

بيان شدّة
العذابِ الواقعِ
على الكفّارِ،
بالتّفصيل
والإظهار

البأساء
والضرّاء،
تدفعان العبادَ
إلى التّضرّعِ إلى
الله تعالى

يُشار ما يروجه
المخاطبُ عند
سماعِ الحدّثِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 354 - 11/355.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/132، و7/227.

معناها، فعلى هذا فهي لا تقيّد هذا المعنى هنا؛ لأنها أتت في هذا المقام من كلام الله ﷻ، فمعناها لا يناسب علم الله تعالى العالم بأحوال الأشياء قبل وقوعها؛ ولأنّها قد وردت في أخبار مع عدم حصول المرجو، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) [الأعراف: 130]، فالفرعون لم يتذكروا كما بيّنته الآيات من بعد⁽¹⁾.

وقد اجتهد المفسّرون في تأويل (لعل) بما يتناسب وكلام الله تعالى، فأوّلت في هذا المقام على معنيين: الأوّل: أنّها بمعنى: التعليل، والمعنى: فعلنا بهم ذلك ليتضرّعوا، ويخلصوا العبادة لي، ويفردوا رغبتهم لله دون غيره⁽²⁾.

الثاني: أنّ التّرجي في هذه الآية إنّما هو على معتقد البشر، أي: لو أنّ أحداً رأى ما حلّ بهم من عذاب؛ لرجا تضرّعهم، وابتهاهم إلى الله تعالى؛ ليكشف ما بهم من سوء⁽³⁾.

بلاغة استعمال لفظ (التضرّع)، دون (التذلل):

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: التضرّع: تفعل من (الضراعة)؛ وهي الدّلة، والاستكانة، والتّخشّع، بمعنى الانقياد وترك التّمرد⁽⁴⁾، وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتّوبة منه، وهي الإيمان بالرّسل.

ويلاحظ شيء من النّقل في جرس هذه الكلمة؛ لأمر منها: عدم إدغام تاء التّفعل في فاء الكلمة، وقوّة بعض حروفها: (الضاد، والراء)، والتّشديد في حرف (الراء)، ثمّ يخفّ لضعف (العين)، و(الواو)، و(الياء)، ولعلّ ذلك ممّا يوحي بشدّة التذلل، والخضوع،

التّضرّع هو
انكسار مع لين،
واعتراف بتلطّف
ورجاء دائم

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/329.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، ومكي، الهداية: 4/2456، والنسفي، التيسير في التفسير: 6/437.

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/291.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 4/497، ووطناوي، الوسيط: 5/287.

والتَّخَشُّعِ، ولا يكملُ ذلك إلا بصدق الانطراح بين يدي الله ﷻ،
وَصِدْقِ اللِّجَاءِ إِلَيْهِ، بإخلاص الدُّعَاءِ له وحده، مع انكسار القلب،
وتمرغ الجبين تذللًا له، والإلحاح بالدُّعَاءِ مرَّةً بعد أخرى؛ علَّه
سبحانه أن يغفرَ، ويرحمَ، ويتوبَ عليهم⁽¹⁾، أمَّا التَّذَلُّلُ؛ فهو إظهارُ
العَجْزِ عَن مقاومة من يُتَذَلَّلُ لَهُ، ولفظُ التَّضَرُّعِ أولى بالمقام لما
يحيوه من معانٍ تُناسِبُ المطلوبَ من تلك الأمم.

نكتة استعمال صيغة الفعل المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾:

أفاد الفعل المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ التَّجَدُّدَ والاستمرارَ، فكان
المرجوُّ منهم تجددَ التَّضَرُّعِ منهم آناً بعد آخر، أي: يدعون الله
بضراعة، ويتذللون، ويحطون أودية الكبر والعزَّة عن أكتافهم.

❖ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

البعثُ: الإثارة والتَّوْجِيهُ والتَّنْبِيه، ويختلف البعث باختلاف ما
عُلِّقَ به، فتارةً يكون عامًّا في معنى التَّوْجِيه والإثارة، كما يُقال: بعثتُ
البعيرَ، أي: سيَّرتَه، وبعثتُ رسولاً، أي: وجَّهته، والبعثُ إيقاظُ مَنْ
النَّوْم، وتنبيهُ مَنْ الغفلة والضَّلالَةَ، وإحياءُ الله الموتى بعثَ لهم،
وتجتمع هذه المعاني في التَّوْجِيه والتَّنْبِيه.

أمَّا الإرسالُ؛ فهو توجيه الشيء بِرَفِقٍ وتُؤدَّةٍ ورحمةٍ، ومنه التَّرسُّلُ
في الكلام والمشي، أي: الهدوء والتَّأَنِّي وعدمُ العجلة، ومنه قولهم: على
رِسْلِكَ، أي: ترفِّقْ، وتأنَّ في القول والفعل، والاسترسالُ: الطمأنينةُ
والسُّكُونُ⁽²⁾. وبهذا يتضح أنَّ البعثَ والإرسالَ يشتركان في معنى نُفُوِيٍّ
عامٍّ هو التَّوْجِيهُ، ويختلفان في: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بِمَلَمَحِ التَّنْبِيهِ والإيقاظِ⁽³⁾.

التَّضَرَّعُ إِلَى الله
عِزَّةً وَفَخَاراً

الْبَعْثُ هُوَ
التَّوْجِيه
مَعَ التَّنْبِيهِ،
وَالْإِرْسَالُ؛ هُوَ
تَوْجِيهِ الشَّيْءِ
بِرَفِقٍ وَتُؤدَّةٍ

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بعث)، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.

(3) داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.

الأخذ يكون
بالتناول أو
بالقهر، أمّا
العقوبة، فتنبئ
عن استحقاق
لذنب ما

الأخذ والعقوبة:

الْأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيْءِ وَتَحْصِيلُهُ، وَذَلِكَ تَارَةً بِالتَّنَاولِ خِلَافَ
الْعَطَاءِ، نَحْوُ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف:
79]، وَتَارَةً بِالْقَهْرِ وَالْغِلْظَةِ، أَي: تَحْصِيلُ الشَّيْءِ فِي الْحِوْزَةِ بِقُوَّةٍ:
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: 73]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت:
37]، كُلُّ ذَلِكَ أَحَاطَتْ بِهِمْ فِي جَوْفِهَا وَبَلَعَتْهُمْ، وَأَتَتْ عَلَيْهِمْ، مِنْ غِلْظِ
الْحِوْزِ فِي الْأَصْلِ، وَنَلَا حِظَ الْغِلْظَةِ فِي كُلِّ ذَلِكَ حَتَّى فِي الْأَخْذِ خِلَافَ
الْعَطَاءِ. أَمَّا الْعُقُوبَةُ؛ فَتُنَبِّئُ عَنِ اسْتِحْقَاقِ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ
الْفَاعِلَ يَسْتَحِقُّهَا عَقِيبَ فِعْلِهِ، فَهِيَ مَجَازَةٌ بِالذَّنْبِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ
تَكُونَ شَدِيدَةً أَوْ أَلِيمَةً أَوْ مُهِينَةً، فَقَدْ تَكُونُ يَسِيرَةً؛ لِارْتِبَاطِهَا بِالذَّنْبِ،
فَإِذَا عَظُمَ الذَّنْبُ؛ عَظُمَتِ الْعُقُوبَةُ، وَإِذَا صَغُرَ؛ كَانَتِ الْعُقُوبَةُ عَلَى
قَدَرِهِ، وَيُوضَحُ ذَلِكَ بِجَلَاءِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
عُرِفْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] (1).

وَنَخْلُصُ مِمَّا سَبَقَ: إِلَى أَنَّ لَفْظِي (الْأَخْذُ وَالْعُقُوبَةُ) بَيْنَهُمَا تَقَارُبٌ
دَلَالِيٌّ، حَيْثُ يَشْتَرِكَانِ فِي النَّكَالِ وَالْمَجَازَةِ، وَلَكِنْ تَتَمَيَّزُ الْعُقُوبَةُ بِأَنَّهَا
قَدْ تَكُونُ شَدِيدَةً، وَقَدْ تَكُونُ يَسِيرَةً، وَأَنَّهَا تُنَبِّئُ عَنِ اسْتِحْقَاقِ؛ لِأَنَّهَا لَا
تَكُونُ إِلَّا عَقَبَ الذَّنْبِ، بَيْنَمَا يَتَمَيَّزُ الْأَخْذُ بِالْغِلْظَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْمَبَاغَةِ فِي
الْعَذَابِ، وَكَوْنُهُ عَامًّا فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

البأساء والبأس:

البأساء: الفقر،
والبأس: القتال

ذَهَبَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ، إِلَى أَنَّهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ: "الْبُؤْسُ
وَالْبَاسُ وَالْبَاسَاءُ: الشَّدَّةُ وَالْمَكْرُوهُ، إِلَّا أَنَّ الْبُؤْسَ فِي الْفَقْرِ وَالْحَرْبِ
أَكْثَرُ، وَالْبَاسُ وَالْبَاسَاءُ فِي النَّكَايَةِ" (2)، وَلَكِنْ وَرُودَ اللَّفْظَيْنِ (الْبَاسَاءُ،
وَالْبَاسُ) مَعْطُوفَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَقْتَضِي تَغَايُرَهُمَا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، العجم الاشتقاق: (أخذ، وعقب).

(2) الراغب، المفردات: (بؤس).

تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177]. فالْبَأْسَاءُ: الفقر، والضَّرَاءُ: المرض، والبَأْسُ: القتال، وهذا من باب التَّرْقِي في الصَّبْر من الشَّدِيد إلى الأشَدَّ، ونلاحظُ أَنَّ لفظي (البَأْسُ والبَأْسَاءُ)، مُتقاربان في الدَّلالة؛ حيث يشتركان في معنى الشَّدَّة والمكروه، ويتميَّز لفظُ (البَأْسَاءُ)، بنوعٍ مِنَ الشَّدَّة هي شَدَّةُ الفقر، بينما يتميَّزُ (البَأْسُ)، بنوعٍ مِنَ الشَّدَّة هي شَدَّةُ القتال، والعذاب والنكال⁽¹⁾.

الضَّرَاءُ والضَّرُّ:

الضَّرَاءُ تعني: البلاء الَّذي يُصِيبُ البدن من أمراضٍ وجوعٍ وعُزٍّ ونحوها، وهو ما عليه معنى الضَّرُّ في الآية، وكذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]⁽²⁾. أمَّا الضَّرُّ (بالضَّم)؛ فالبلاءُ مِنَ المرض أو الفقر أو غير ذلك، فليس الضَّرُّ مقصوراً على نوعٍ بعينه مِنَ البلاء، بل هو عامٌّ في كُلِّ بلاءٍ يصيبُ الإنسان، وهو اسمٌ للحال التي تُؤْلَمُ الإنسان⁽³⁾.

التَّضَرُّعُ والجُؤَارُ:

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: من التَّضَرُّع، وهو إظهارُ الضَّرَاعَةِ⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: 63]، فإذا أَفْرَطَ في الدَّعَاءِ والتَّضَرُّعِ قيل: جَأَر؛ تشبيهاً له بجُؤَارِ الوحشِيَّاتِ، كالظُّبَاءِ ونحوها⁽⁵⁾، ومن معاني الجُؤَارِ أيضاً التَّضَرُّعُ الذي يُصاحبه الجزعُ ورفعُ الصوت.

الضَّرَاءُ كُلُّ بلاءٍ
يُصِيبُ البدن،
والضَّرُّ كُلُّ ما
يُصِيبُ الإنسانَ
عموماً

التَّضَرُّعُ إظهارُ
الضَّرَاعَةِ،
والاجتنارُ الإفراطُ
في الدَّعَاءِ
والتَّضَرُّعِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/445، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 427.

(2) الرمضشري، الكشف: 2/132، وابن عطية، البحر الوجيز: 3/153، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/140.

(3) الرمضشري، الكشف: 2/673، و3/197، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/455.

(4) الراغب، المفردات: (ضرع).

(5) الراغب، المفردات: (جأر).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 10، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 0-62-798-9948-978

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 10: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي: 0-62-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»